المحاضرة السابعة: الفكر الحضري عند ابن خلدون

المقدمة: شكل ابن خلدون علامة فارقة في مجال علم الاجتماع بشكل عام وعلم الاجتماع الحضري بشكل خاص، وذلك من خلال ما أبان عنه من أفكار جد قيمة أسهمت في لفت الانتباه للكثير من شؤون المجتمعات الحضرية والريفية، والتي لم تكن محل اهتمام من سبقوه من المفكرين، خاصة وأن نظرته وتوصيفه للأحداث لم تنطلق من نظرة فلسفية أو تخيلية كما كان عليه الحال مع من سبقوه، بل طبعت بنظرة واقعية معبرة عن أحوال الكثير من المدن والأمصار التي زارها واستقر فيها برهة من الزمن، والتي سوف نقف على جانبا منها في تفاصيل هذه المحاضرة.

أولا. لمحة عن حياة ابن خلدون وأهم مؤلفاته: ولد عبد الرحمان **ابن خلدون** في 27 مايو 1332 بتونس وسط أسرة أندلسية عريقة سطع نجمها فيها لسنوات طويلة بعد أن كان لبعض أفرادها دور مؤثر في بعض جوانب الأحداث التي شهدتها أشبيلية آنذاك، كما شغل البعض منهم مراتب الرياسة والوزارة، ولم ضعفت دولة **الموحدين** نزح بنو خلدون إلى إفريقيا وتحديدا إلى تونس أين أكرم **الحفصيون** وفادتهم، وتولى الجد الثاني لابن خلدون شؤون دولتهم بتونس، كما تولى جده الأولى شؤون الحجابة فيها أيضا.

حفظ **ابن خلدون** القرآن وتعلم قواعد تجويده، كما درس العلوم الشرعية واللسانية والمنطق والفلسفة والعلوم الطبيعية والرياضية، وعند بلوغه سن الثامنة عشر (18) أنقطع عن التعليم بسبب انتشار مرض الطاعون، وأخذ يتطلع إلى الوظائف العامة والسير في الطريق نفسه الذي سار فيه أجداده، فوصل إلى أعلى مراتب الحكم في عهد ملوك عديدين، فتولى كتابة السر وخطة المظالم، وصار بعد ذلك وزيرا وحاجبا وسفيرا ومدرسا وقاضيا وخطيبا.

أما عن الملامح الأساسية للظروف المجتمعية التي عاش خلالها وأراد الكتابة عنها، فقد اتسمت بوجود نمط إقطاعي في مرحلة انتقالية محتفظة ببقايا من النظام العشائري المتفسخ. وكان النمط الإقطاعي أخذا في النمو،

متوجها نحو التأثير سلبا في مركزية الدولة، ومعمقا من التناقضات الاجتماعية خاصة في الحواضر والمدن، هذا بجانب انتعاش التجارة في المدن الساحلية المطلة على البحر المتوسط.

هذه الظروف والملامح أثرت في فكره بوصفها مسرح ملاحظاته ومقارناته واستنتاجاته، وقادته إلى تقديم عدد من الأعمال والتي يعد كتابه: "**العبر، وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**"، أهم ما كتب في مسيرته الحياتية الحافلة بالأحداث والاضطرابات السياسية. فهذا الكتاب مرتب على مقدمة وثلاثة (03) كتب، حسب تعبير المؤلف نفسه. والكتاب الذي يعرف الآن باسم المقدمة يتألف في الحقيقة من المقدمة والكتاب الأول فقط، حيث جاءت **المقدمة** في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والإلماع لما يعرض للمؤرخين في المغالط وذكر شيء من أسبابها، أما الكتاب فهو مدرج تحت مسمى "**في طبيعة العمران في الخليقة وما يعرض فيها من البدو والحضر والتغلب والكسب والمعاش، والصنائع والعلوم ونحوها، وما لذلك من العلل والأسباب**". ويقسم هذا الكتاب إلى ستة فصول، وهي:

- **الفصل الأول**: في العمران البشري على الجملة، وأصنافه وقسطه من الأرض.
- **الفصل الثاني**: في العمران البدوي وذكر القبائل والأمم الوحشية.
- **الفصل الثالث**: في الدول والخلافة والملك وذكر المراتب السلطانية.
- **الفصل الرابع**: في العمران الحضري والبلدان والأمصار.
- **الفصل الخامس**: في الصنائع والمعاش والكسب ووجوهه.
- **الفصل السادس**: في العلوم واكتسابها وتعلمها.

أما **الكتاب الثاني** فهو في أخبار العرب وأجيالهم ودولهم منذ بدء الخليقة إلى هذا العهد، وفيه الإلماع إلى بعض من عاصرهم من الأمم المشاهير ودولهم، مثل النبط والسريانيين والفرس وبني إسرائيل والقبط واليونان والروم والإفرنجة. في حين تضمن **الكتاب الثالث** أخبار البربر، وفيه ذكر لأوليتهم وأجيالهم وما كان لهم من الملك.

ثانيا. ثنائية البدو والحضر في فكر ابن خلدون: يعد **ابن خلدون** بحق من أوائل المفكرين الاجتماعيين الذين وضعوا تصنيفات للمجتمعات الإنسانية، يقوم هذا التصنيف على التفرقة بين نمطين من المجتمعات وهما المجتمع البدوي والحضري، كما يظهر في الجزء الذي كتبه عن: "**طبيعة العمران في الخليقة وما يعرض فيها من البدو والحضر والتغلب والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ونحوها وما لذلك من العلل والأسباب**".

بمعنى أن **ابن خلدون** هنا قام بإعداد تصنيف مبتكر للمجتمعات الإنسانية لم يسبقه إليه غيره، حيث قادته ملاحظته لأحوال الناس في عصره إلى إدراك استقطابهم حول فئتين لا ثالثة لهما، وهما البدو والحضر. فما هو تعريفه لكل منهما؟ وما هي سمات كل واحد فيهم؟.

1- تعريف المجتمعين البدوي والحضري: الصورة التعريفية التي رسمها **ابن خلدون** للبداوة والإنسان البدوي تجلت في قوله: "***أهل البدو هم المنتحلون للمعاش الطبيعي من الفلح والقيام على الأنعام، وأنهم***

مقتصرون على الضروري في الأقوات والملابس والمساكن وسائر الأحوال والعوائد ومقصرون عما فوق ذلك من حاج أو كمالي، يتخذون البيوت من الشعر والوبر أو الشجر أو من الطين والحجارة".

هذا المفهوم لم يحظى برضا الكثير من أهل الاختصاص، الذين لم يستسيغوا فكرة حشره للقرى والنشاط الزراعي ضمن المجال البدوي، حيث بات مسمى البدو عنده يتسع ليشمل الفلاحين المستقرين في قراهم الزراعية المتناثرة في أجواف الصحاري العربية، بينما يقصر تسمية الحضر على أهل العواصم والأمصار ومن يمتهنون التجارة والصناعة، ومن بلغوا الغاية في الغنى وتوسعة البيوت واختطاط المدن والأمصار. أما المجتمع الحضري حسب **ابن خلدون** فهو نتاج مباشر للمجتمع اللاأول فقط، وذلك بعد أن يخضع لسلسلة من التحولات التي تطرأ عليه وتدفعه للتغير نحو وضع جديد، وذلك ما يتجلى في قوليه: "***البادية أقدم من الحضر...***"، وكذا "***البداوة أصل العمران، وأن الأمصار امتداد لها...***". وفي ذلك تأكيد واضح وصريح من أنه لا مجال لفهم المجتمع الحضري دون الغوص في أعماق الحياة البدوية، وإدراك كل ما يحيط بها من مقومات وتفاصيل.

هذا المنظور الخلدوني، ينبه من كونه لم يتناول ظاهرتي البدواة والعمران الحضري بشكل ستاتيكي، أو بمعنى أدق كنموذجين مغلقين متناحرين، وإنما ظهرتا في سياق التطور والحركية للعمران البشري ككل، أي أن البداوة حسبه ليست سوى المرحلة الأولى لدورة العمران البشري. وهو بذلك يختلف حسب **حسين مؤنس** اختلافا بينا عما تواضع عليه أهل التاريخ والاجتماع من أن مجتمع الرعاة غير مجتمع الزراع، وأنهما مجتمعان يختلفان كل منهما تمام الاختلاف عن الأخر في الطبيعة والهيئة.

ومرد ذلك في تقديرنا، أنه لم يدرس مجتمع الرعاة أو مجتمع الزراع الدراسة الكافية، ولا هو عرف كيف ولماذا نشأ كل من هذين المجتمعين. والحقيقة أن ابن خلدون ربط بين مجتمعي الرعاة والزراع برابط بسيط، هو العيش في الفضاء معيشة بدائية جافة بسيطة لا تكلف فيها ولا تأنق، وليس هذا برابط أو جامع يمكن التعويل عليه في القول بأن مجتمع البدو يشمل مجتمع الرعاة والزراع.

ويتميز الوضع الجديد الذي انتهى إليه المجتمع البدوي حسبه، بمستوى اقتصادي عال وبدرجة كبيرة من التقدم الثقافي والصحي والعمراني، وتكون العلاقات الاجتماعية بين أعضائه ضعيفة لأنها رسمية ومحددة بالقوانين الشرعية والرأي العام. كما تكون العناصر فيه كثيرة وتتوافر فيد درجة عالية من القدرة السكانية.

2– سمات المجتمعين البدوي والحضري: قام **ابن خلدون** بحصر وتحليل خصائص كل مجتمع أو نموذج وسماته الثقافية وطبيعة الانتاج الاقتصادي فيه، ومدى سيطرة الأعراف والقيم على الجماعة والأفراد داخل البناء الاجتماعي الكلي، فوجد أن صفات كل منهما مغايرة بل ومضادة تماما لصفات الأخر، كما وجد أيضا أن هناك تفاعلا مستمرا بينهما، فاستنتج من ذلك أن المجتمع في جميع حوادثه الماضية والمقبلة هو نتاج لهذا التضاد والتفاعل المستمر

" فإذا كان البدوي شجاعا لا يهاب الموت فإن الحضري جبان يؤثر الدعة، وإذا كان البدوي متوحشا فالحضري مترف، وإذا كان البدوي طيب الخلق أقرب إلى الفطرة فالحضري إنسان أفسدته الحضارة وجعلته رخوا ومخادعا كذابا، وإذا كان البدوي يدافع عن نفسه بحد سيفه، فالحضري وكل الدفاع عن نفسه إلى الدولة لدرجة أنه يستأجر من يتولى هذه المهمة عنه، وإذا كان الحضري يحب العلم والصنعة، فالبدوي يبغض العلم ويكره الصنعة، وإذا كان الحضري يحترم حقوق غيره ولا يرضى عن السلب والنهب، فالبدوي لا يؤمن إلا بغلبة السيف ويمد السلب والنهب كمظهر من مظاهر القوة والغلبة والسلطان" إلى أخر هذه المقارنات التي كان ينتهي فيها **ابن خلدون** دائما لنصرة البدوي، لأنه كان يرى أن كلا منهما هو صنيعة البيئة التي خلق ونشأ بها، ولما كانت حسبه البادية بيئة صحية سليمة فإنها تنتج إنسانا صحيحا سليما والعكس دائما هو الصحيح.

وتقسيم ***ابن خلدون*** للبدو والحضر على أساس أسلوب حياتهم المعيشية وما يولده لديهم من طبائع وسجايا، يرجع إلى اهتمامه بالصفات الأخلاقية وتأثيرها على السلوك الاجتماعي للجماعات. كما أن التركيز على المهنة في حياة الأفراد وإبراز الجانب الاقتصادي قد أكدته الكثير من الدراسات الحضرية المعاصرة.

3- تصنيف بن خلدون للبدو: يعد التصنيف الذي قدمه العلامة العربي **ابن خلدون** للبدو، أول تصنيف جرى إعداده في التاريخ الإنساني للمجتمعات البدوية، حيث ذهب فيه إلى أن المجتمعات البدوية تنقسم حسب درجة تأصل ظاهرة البداوة فيها من عدمها إلى ثلاثة (03) أشكال، وهي التي تتمثل في:

- الاستقرار الجزئي: ويأتي في أسفل سلم الترتيب البدو الذين عرفوا نوعا من الاستقرار من خلال التوطن بالقرب من المجاري المائية وعند حواف المناطق الزراعية وامتهان الزراعة.
- البداوة الجزئية: وتضم بين صفوفها كل من الشاوية (أصحاب الشاة) وهم رعاة الضأن وقد وضع معهم على نفس الدرجة البقارة (رعاة البقر) ، وهي أقل تأصيلا من سابقتها، نتيجة لعدم قدرة حيوانات الرعي (الضأن والبقر) على التوغل قدما في عمق الصحراء واحتمال الجفاف وندرة مصادر المياه، ومن هنا كان لجوء بدو هذا الشكل من الشاوية والبقارة إلى التموضع على أطراف الصحراء والتجمعات. وإذا كان **ابن خلدون** يسمى التل "موطن البقر"، والسهل "موطن الشاة"، فإن الصحراء حسبه هي موطن الإبل ومرتع لصنف أخر من البدو.
- البداوة الخالصة: وتتمثل في البدو الذين يعتمدون على الإبل في معاشهم كله، ويسمى أصحابها حسبه بالأبالة أي "رعاة الإبل"، وتمارس خلالها الجماعات البدوية "الظعن" في قلب الصحاري، ومن الطبيعي أن يكون دليلها في ذلك هو الجمل بما لديه من قدرة وتحمل.

وذلك ما يتضح في قوله: "**فمن كان معاشه منهم في الزراعة والقيام بالفلح كان المقام أولى به من الظعن، وهؤلاء سكان المدن والقرى والجبال وهم عامة البربر والأعاجم، ومن كان من السائمة مثل البقر والغنم فهم ظواعن في الأغلب ويسمون شاوية، أما من كان معاشهم في الإبل فهم أكثر ظعنا وأبعد في**

الفقر مجالا، فكانوا لذلك أشد الناس توحشا، وتنزلوا من أهل الحواضر الوحش غير المقتدر عليه والمفترس من الحيوانات العجم وهؤلاء هم العرب". ويتخذ هذا الترتيب المدينة مقياسا، وهي التي تعني في هذا المجال المقام والاستقرار مع ما ينجر عن ذلك من مظاهر دينية وسياسية وثقافية واقتصادية، حيث ذكرها **ابن خلدون** مرتبة من الأقل بداوة (المشتغلين بالزراعة) إلى الأكثر بداوة (مربي الإبل)، ومرد ذلك أن "الفقر مكان الشظف والسغب فصار لهم غلفا وعادة".

4– الموقف العلمي من أراء بن خلدون إزاء البدو اليوم: هيمن النموذج الخلدوني المنحاز ضد البدو لفترة طويلة على الثقافة العربية والتي ظلت تتبنه كإطار مرجعي لها، وهو الذي قدمها في صورة نموذج تعاقبي (دياكرونيك **Diachronic**)، في الوقت الذي لا يحظى فيه هذا الموقف بكثير من الدعم من طرف الدراسات الأنثروبولوجية والأركيولوجية الحديثة، والتي تبدو أميل إلى اعتبارها علاقة سينكرونيكية (**SYNCHRONIC**) أي تزامنية تمليها إيكولوجية الصحراء، والتي تجعل من العلاقة بين البداوة والحضارة علاقة عضوية تكاملية، حيث لا يمكن لأي منهما أن يعيش دون الأخر أو يستغني عن خدماته. وهذا بدوره ينفي صفة البدائية عن البداوة، ويجعلها هي والحضارة وجهين لعملة ثقافية صحراوية واحدة.

ومرد ذلك أنه غض الطرف عما يقوم بين البدو والحضر من تعاون وتكامل في مختلف النشاطات الإنتاجية، وسلط المجهر فقط على الفروق الاجتماعية والسيكولوجية التي تباعد فيما بينهما، وتصبغ علاقتهما بصبغة الصراع والتضادية. حيث تحتل البداوة في النموذج التطوري الذي يقدمه لثنائية البدو والحضر مرحلة بدائية متوحشة سابقة لمرحلة الحضارة وأصلا لها ومتقدمة على وجود المدن والأمصار. ولكي يبرز التعاقبية الحضارية في هذه الثنائية، عمد إلى تمثيل الطرف الحضري في أرقى درجات التمدن والتحضر، في حين مثل الطرف البدوي في أدنى درجات التوحش وخشونة العيش. ولكن إفتراض أولية البدو على الحضر يتنافى ويتعارض كلية مع ما ذهب إليه في موقع أخر من أن البدو لا غنى لهم عن الحضر، ما يعني أنه يستحيل وجود البدو إلا بالتزامن مع وجود الحضر الذين يمدونهم بحاجاتهم الضرورية كما يقول ابن خلدون وكما أثبتته الدراسات الحديثة.

كما أن بداوة **ابن خلدون** كانت على غاية من الإبهام، لكونه لم يهتم كثيرا بالمجتمع البدوي ولم يركز عليه تركيزه على المجتمع الحضري، بل أنه قدمه بصورة ناقصة وغير دقيقة، لأن الحضارة في تقديره الشخصي هي الطموح التاريخي للبداوة وهي غايته التي يسعى إليها طالما أنها هي المعنى الحقيقي والشريف لوجوده. فعمران البادية ناقص عن عمران الحواضر والأمصار، ولما كان الأمر كذلك فإن بن خلدون لم يهتم بالبدو إلا من حيث هم الصورة النقيضة للحضارة والخطر الذي يتهددها على الدوام، وبتالي فالبادية كانت مجرد فرضية عمل لبيان حقيقة العمران الذي هو الاجتماع (...) والذي هو المدينة في اصطلاح الحكماء. وهو ما فسره **ناصيف نصار** بأنه بفعل الاستقطاب الذي الذي كان يوجه فكر **ابن خلدون** ويحمله على اعتبار البداوة أصلا للدولة، وبتالي فإن كيفية تكونها غير مطروحة عنده تماما.

ثالثا. الحتمية البيئية: ظلت الأفكار الخاصة بحتمية البيئة في تفسير العمران البشري، خاضعة لأراء وتصورات مفكري الإغريق، دون أن تجد من المفكرين من يتبعها بأفكار أخرى وذلك حتى القرن الرابع عشر (14) ميلادي، أين ظهرت رؤية **ابن خلدون** في هذا الموضوع في مقدمته عن العمران البشري، والتي تقوم على التسليم بأن البيئة الطبيعية هي التي تساهم في بلورة السمات البيولوجية والنفسية للإنسان، وهذه السمات هي التي تعمل في النهاية على تشكيل المجتمع على هيئاته المختلفة، معتمدا في طرحه هذا على تقسيم الجغرافيين القدماء للعالم إلى سبعة (07) أقاليم مناخية، يتم التفريق بينها على أساس اختلاف درجة الحرارة من الشمال إلى الجنوب ومن الحارة إلى الباردة، معتبرا أن الربع الشمالي من الأرض أكثر عمرانا من الربع الجنوبي منها.

اهتمام **ابن خلدون** بالعامل البيئي لم يتوقف عند هذا الحد، حيث نجد أنه بعد أن وصف أحوال هذه الأقاليم وذكر ما فيها من تنوع في البيئة الطبيعية، قام بتفسير الاختلافات فيما بين شعوب هذه الأقاليم المناخية، جاعلا من اختلاف البيئة الطبيعية سببا رئيسيا لتباين كل من:

- طبائع سكان هذه المناطق وأحوالهم الشخصية: ممثلة في الميول والشعور بالانتماء والرغبات الخاصة والتطلعات والدوافع التي تحركها والاتجاهات المختلفة، والتي تعبر عن استجابة الشخصية في المواقف المختلفة.
- الاجتماعية: وتخص النظم الاجتماعية والجماعات البشرية والأدوار المختلفة وطبيعة العلاقات الاجتماعية التي تسود بين تلك النظم والتنظيمات والجماعات الاجتماعية.
- الثقافية: وتتعلق بالقيم والمعاني والمعايير فضلا على الجانب المادي من الثقافة المتمثل في العمارة والتكنولوجيا. وبذلك نجد أنه يتناول تأثير المكان على أحوال الناس الثقافية والاجتماعية والشخصية، حيث أن هذا الوضع المناخي حسبه يسهم في تبلور ظاهرتين أساسيتين، وهما:

1- تطور العمران البشري في الأقاليم المعتدلة: يقصد **ابن خلدون** بالأقاليم المعتدلة **بلاد المغرب والشام والحجاز واليمن والعراق والهند والسند والصين وما كان قريبا منهم**، والتي تعمل على جلب أكبر قدر ممكن من البشر للتوطن بها، نظرا لما توفره من شروط مناخية ملائمة لحياة الإنسان وحتى الحيوان. وهذا ما يسهم في ظهور التجمعات البشرية والتي تؤدي بدورها إلى ظهور الحضارات الإنسانية، حيث يقول في هذا الصدد: "***إن المعمور من هذا المكشف من الأرض إنما هو إفراط للحر في الجنوب وإفراط للبرد في الشمال، ولما كان الجانبان متضادين في الحر والبرد وجب أن تتدرج الكيفية من كليهما إلى الوسط فيكون معتدلا، فجاء سكانه من البشر أعدل أجساما وألوانا وأخلاقا وأديانا، حتى النبوات فإنها توجد في الأكثر في هذا الإقليم، ولم نقف على خبر بعثة في الأقاليم الجنوبية ولا الشمالية، وذلك أن الأنبياء والرسل يختص بهم أكمل النوع من البشر في خلقهم وأخلاقهم... أهل هذه الأقاليم أكمل لوجوه الاعتدال لهم، فنجدهم على غاية من التوسط في مساكنهم وملابسهم وأقواتهم وصنائعهم، فلهذا كانت العلوم والصنائع والمباني والأقوات والفواكه بل حتى الحيوانات هي على نحو من الاعتدال...***".

2- تخلف العمران البشري في الأقاليم المفرطة في الحر والبرد: يقصد ابن خلدون بالأقاليم المفرطة في الحر والبرد تلك التي يصعب مجارات مناخها، ومن ثمة كان نفور العمران البشري منها واضحا، إذ لا يقطنها إلا مجموعات قليلة من القبائل التي يغلب عليها الطابع البدائي منه إلى التحضر، حيث يقول في هذا الصدد: "***أما الأقاليم المناخية البعيدة من الإعتدال، فأهلها أبعد إلى الاعتدال في جميع أحوالهم، فبناؤهم بالطين والقصب وأقواتهم من الذرة والعشب وملابسهم من أوراق الشجر وأخلاقهم مع ذلك قريبة من التوحش وطبائعهم ومزاجهم غريب، تمتاز بالخفة والطيش وكثرة الطرب، ولا يدينون بشريعة إلا من قرب منهم من جوانب الاعتدال، وهو نادرا مثل كوكو والتكرو وبعض القبائل القريبة من صحراء بلاد المغرب جنوب مالي الدائنة بالاسلام، ومعظم سكان أقصى الشمال القريبة من الصقالبة والأتراك...***"

رابعا. التحضر والنمو الحضري عند ابن خلدون: يعد **ابن خلدون** من أوائل المفكرين الذين اهتموا بدراسة ظاهرة النمو الحضري، فأهتم في مقدمته المشهورة بمعالم نشأة المدن والظواهر المرتبطة بها، حيث كتب في هذا الموضوع بشيء من التفصيل في الباب الرابع منه، والذي كان عنوانه: "**في البادية والأمصار وسائر العمران وما يعرض في ذلك من الأحوال وفيه سوابق ولواحق**"

فبعد اختطاط المدن وتأسيسها لأي سبب من الأسباب (ديني، اقتصادي...)، فإن تلك المرحلة للمدينة تشبه مرحلة الميلاد لأي كائن حي، ومن المعلوم أن جميع الكائنات الحية بعد الولادة تتصف بصفات الضعف والنقص وصغر الحجم، فمنها من يوافيه الأجل صغيرا وبعد ولادته مباشرة، ومنها من تأخذ بعد ذلك في النمو رويدا رويدا حتى تبلغ مرحلة النضج والاكتمال، فيؤخر أجله إلى مراحل متأخرة من العمر. وكذلك الحال بالنسبة للمدن والأمصار فهي تشبه الكائنات الحية من هذا الوجه، فالمدينة تبدأ صغيرة ثم تأخذ في النمو قليلا قليلا، وقد يكون نموها بطيئا وقد يكون سريعا لتوفر دواعيه وعناصره، وهناك مدن ماتت في مهدها ومدن أخرى ماتت في شبابها، ومدن عمرت طويلا فتزدهر حينا وتنكمش حينا أخر حسب الظروف السياسية والاقتصادية والحربية.

وقد تنبه **ابن خلدون** لذلك، حيث يقول في هذا الإطار: "***أعلم أن الأمصار إذا اختطت أولا تكون قليلة الساكن، وقليلة الأت البناء من الحجر والجير وغيرهما مما يعاني على الحيطان عن التأنق كالزلج (الصخور الملس) والرخام والربج (الدرهم الصغير الخفيف) والزجاج والفسيفساء والصدف، فيكون بناؤها يومئذ بدويا وآلاتها فاسدة. فإذا عظم عمران المدينة وكثر سكانها كثرت الآلات بكثرة الأعمال حينئذ، وكثر الصناع إلى أن تبلغ غايتها بذلك كما سبق بشأنها***". ومعنى ذلك، أنه إذا كان النمو الحضري ذو خط مستقيم لدى بعض علماء الاجتماع الحضري، (العصبية- الملك- المدينة- زيادة الإنفاق- زيادة الاستقطاب- زيادة التحضر)، فإنه ليس كذلك عنده. إذ ليس من الضروري أن يكون هناك استمرار لهذا النمو، فقد يحدث أن يتراجع عمران المدينة فيخف عندئذ عدد سكانها وتقل الصنائع لأجل ذلك. وبهذا فإن اجتماعية ابن خلدون ليست ذو طابع استاتيكي، إنها رؤية للواقع الاجتماعي في زمانه على الأقل، حيث كانت الدولة لا بد لها حسب

تصوره أن تمر بالمرحلة البدوية ثم الزراعية أما الصناعية فهي أبرز منجزات الحضارة المدنية، وذلك ما عبر عنه بقوله: "***أما الصنائع فهي ثانيتها ومتأخرة عنها لأنها مركبة وعلمية وتصرف فيها الأفكار والأنظار ولهذا لا توجد غالبا إلا من أجل الحضر الذي هو متاخر عن البدو وثان عليه***".

كما يؤكد **ابن خلدون**، أن زيادة السكان معناه توسع المدينة، بحيث تشمل مناطق لم تكن مأهولة من ذي قبل. ويستشهد في سياق ذلك بالعديد من المدن التي وقف على أحوالها خلال مسار تناقلاته المختلفة، حيث يقول في هذا الصدد: "***كما وقع في بغداد وأمثالها من المدن، فقد كانت بغداد مشتملة على مدن وأمصار متلاصقة ومتقاربة تجاوز الأربعين، ولم تكن مدينة وحدها يجمعها سور واحد لإفراط العمران، وكذا حال القيروان وقرطبة والمهدية وحال مصر والقاهرة بعدها***".

كما يجزم أيضا بأن عظم عمران المدينة يعني كثرة سكانها، وهو أمر له تداعياته بعد ذلك على الكثير من أوجه الحياة فيها، ويتضح ذلك حين يقول: "***إن الناس في المدن لكثرة الازدحام والعمران يتشاحون حتى في الفضاء والهواء الأعلى والأسفل، ومن الانتفاع بظاهر البناء مما يتوقع معه حصول الضرر في الحيطان فيمنع جاره من ذلك، إلا من كان له فيه حق، ويختلفون أيضا في استحقاق الطرق والمنافذ للمياه الجارية والفضلات المسربة في القنوات***".

خامسا. المدينة في الفكر الخلدوني: شغل موضوع نشأة المدن وتطورها وعوامل ذلك حيزا هاما من مجال تفكير وكتابة **ابن خلدون**، وهو ما يمكن الوقوف عليه في الإيجاز الوارد أدناه.

1- **مفهومه للمدينة**: لم يقدم ابن خلدون تعريف صريح يتصف بخاصيتي الجمع والمنع، حيث أن تصوره لها جاء متناثرا في مواطن عدة من مقدمته، حيث كان يعطيها في كل موقع منها صفة من صفاتها أو حالة من الحالات التي تكون عليها، فمن صفاتها عند الاستقرار والترف ارتفاع مستوى المعيشة والدعة والسكون، حيث يقول: " ... ***أعلم ان المدن قرار تتخذه الأمم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف ودواعيه، فتؤثر الدعة والسكون وتتوجه إلى اتخاذ المنازل للقرار***". كما يتحدث عن أحد صفاتها في موضع أخر، فيقول: "***وأيضا فالمدن والأمصار ذات هياكل وأجرام عظيمة وبناء كبير، وهي موضوعة للعموم لا للخصوص فتحتاج إلى اجتماع الأيدي وكثرة التعاون***". ويتحدث في محل ثالث عن الرابطة العضوية بين الدولة والإدارة من جهة والمدينة من جهة أخرى، فيقول: "***إن الدولة والملك للعمران بمنزلة الصورة للمادة... وإنفكاك احدهما عن الأخر غير ممكن على ما قرر في الحكمة، فالدولة دون العمران لا تتصور والعمران دونها متعذر... وحينئذ فاختلال أحدهما مستلزم لاختلال الأخر، كما أن عدمه مؤثر في عدمه***".

كما يتحدث في مجال أخر عن صفات تجمعها السكاني والرابطة التي تقوم بينهما، فيقول أنها: "***ليست مجرد تجمع سكاني يزداد وينقص بفعل الصناعة ولا مجرد أفراد يخضعون للقوانين المدنية، إنهم قبل كل شيء مجتمع إنساني لهم روابطهم الاجتماعية، وإذا كانت العصبية هي الرابط لأبناء القبائل فإن أهل***

الأمصار كثيرا منهم ملتحمون بالصهر يجذب بعضهم بعضا إلى أن يكونوا لحما وقرابة وتجد بينهم من الصداقة والعداوة ما يكون بين القبائل والعشائر ".

2- **شروط نشأة وقيام المدن**: حسب ابن خلدون فإن "***المدينة تمثل مرحلة من مراحل التطور الحضاري التي تأتي بعد حالة البداوة، فعندما تتطور المجتمعات البدوية وترقى بمستوياتها المعيشية والحضارية، يأخذ أبناؤها بالاستقرار وبناء المساكن وتأسيس المرافق والخدمات التي بدورها تكون نواة لتأسيس المدينة، فالبناء واختطاط المنازل إنما هو من منازع الحضارة التي يدعو إليها الترف والدعة وذلك متأخر عن البداوة ومنازعها*** ".

وقد حدد ابن خلدون لهذا الغرض، مجموعة من العوامل والشروط المستوجب استيفائها من أجل نشأة المدن أو تطورها، وهي التي يمكن حصرها إجمالا فيما يلي:

2-1- الشرط الاقتصادي: ويتمثل في تقسيم العمل، تجاوز حد الكفاية والتعاون والذين يعتبرون حسبه شروطا لتأمين الحد الأدنى من الغذاء، إذ لا يمكن أن تنشأ المدن إلا بعد تجاوز حد الكفاية فيه. فهول يقول في هذا الصدد: "***ثم إذا اتسعت أحوال هؤلاء المنتحلين للمعاش وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرفه، دعاهم ذلك إلى السكون والدعة، وتعاونا في الزائد على الضرورة، واستكثروا من الأقوات والملابس والتأنق فيها وتوسعة البيوت واختطاط المدن والأمصار للتحضر***". ولا يمكن أن يتحقق حد الكفاية إلا بتقسيم العمل، وهذا الأخير يستدعي التظافر والتعاون لإحقاقه.

2-2- الشرط السياسي: ويعد من العوامل الجد حاسمة في مسار عملية نشأة المدن، فهي حسبه من عمل الملك والدولة وإن إعمارها وتطورها ملازم لحياة الدولة فتزول أو تتقلص بذهابها وتنمو وتتطور بوجود الدولة وتطورها كما في بغداد والقيروان وقرطبة. ويتجلى أثر هذا العامل في جزئيتين رئيسيتين، سنقف عليهما في التفصيل الأتي.

- **الحاجة إلى حاكم**: بغرض منع اعتداء الناس على بعضهم البعض، فهو يقول في ذلك: "***ثم إن هذا الاجتماع إذا حصل للبشر كما قررناه وتم عمران العالم بهم، فلا بد من وازع يدفع بعضهم عن بعض لما في طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم، وليس ألة السلاح التي جعلت دافعة لعدوان الحيوانات عنهم كافية في دفع العدوان عنهم لأنها موجودة لجميعهم، فلا بد من شيء أخر يدفع عدوان بعضهم عن بعض، ولا يكون من غيرهم لقصور جمع الحيوانات عن مداركهم والهاماتهم فيكون ذلك الوازع واحدا منهم يكون له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة، حتى لا يصل أحد إلى غيره بعدوان، وهذا هو معنى الملك***".

- **وجود الدولة والملك**: يرى **ابن خلدون** في هذا الصدد أن غاية العصبية هو الملك وغاية الملك هو الحضر، وذلك ابتغاء تحقيق هدفين أساسيين وهما التمتع بنعيم الحياة الحضرية وحط الأثقال من ناحية، واتخاذ

المدن حصنا للمدافعة ضد الغزاة من ناحية ثانية، لأن أسوار المدينة وجدرانها تقوم مقام العسكر والجند، ولذلك لا بد من اختطاط المدن التي تليق بالدولة أو اتخاذ المدينة الدولة الزائلة مقرا لها، ويتأكد ذلك في قوله: " ***إن القبائل والعصائب إذا حصل لهم الملك اضطروا للاستيلاء على الأمصار لأمرين: أحدهما ما يدعو إليه الملك من الدعة والراحة وحط الأثقال، واستكمال ما كان ناقصا من أمور العمران في البدو، والثاني دفع ما يتوقع على الملك من أمر المنازعين والمشاغبين لأن المصر الذي يكون في نواحيهم ربما يكون ملجأ لمن يروم منازعتهم والخروج عليهم، وانتزاع ذلك الملك الذي سموا إليه من أيديهم، فيعتصم بذلك المصر ويغالبهم، ومغالبة المصر على النهاية من الصعوبة والمشقة، والمصر يقوم مقام العساكر المتعددة لما فيه من الامتناع ونكاية الحرب من وراء الجدران من غير حاجة إلى كثير عدد ولا عظيم شوكة***".

2-3- ***العامل الديني***: يضيف **ابن خلدون** سببا أخر لنشأة المدن وهو العامل الديني، فهناك مدن نشأت لأسباب دينية وهناك مدن نمت وتطورت بعد أن صارت لها مكانة دينية في نفوس الناس. فمن النوع الأول يمكن ذكر مكة المكرمة والقدس الشريف، ومن النوع الثاني المدينة المنورة*. فلو كان العامل الاقتصادي هو السبب الوحيد لنشأة المدن لما أسكن النبي ابراهيم ذريته بوادي غير ذي زرع، ولكن السبب هنا يعود إلى أن الله قد اختار هذه البقعة وفضلها على غيرها ويسر لها رزقها الذي يأتيها من كل مكان.

3- مواقع المدن وشروط إقامتها: احتلت مواقع إنشاء المدن أهمية خاصة في نظرة **ابن خلدون** لعملية اختطاط المدن، حيث أكد على ضرورة مراعاة أمرين أولهم يتعلق بدفع المضار والأخطار عنها وكل ما يهدد فرص الحياة فيها، وثانيهم يختص بضرورة جلب المنافع وتسهيل المرافق التي تجعل الحياة ميسرة ومريحة في المدينة، وبيان ذلك يتجلى في قوله: "... ***وجب أن يراعي فيه دفع المضارب بالحماية من طوارقها وجلب المنافع وتسهيل المرافق والمتطلبات المعينة***". ولكل واحدة منهما مقتضيات تستدعي أن نقف عندها.

1) دفع المضار والأخطار: والمقصود بها جميع أشكال التهديد التي قد تطالها سواء كانت ذات طبيعة عسكرية** كما هو وارد في قوله: "***فأما الحماية من المضار فيراعى لها أن يدار على منازلها جميعا سياج الأسوار، وأن يكون وضع ذلك في ممتنع من الامكنة، إما على هضبة متوعرة من الجبل، وإما باستدارة بحر أو نهر بها حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة، فيصعب منالها على العدو ويتضاعف امتناعها وحصنها***". أو ذات صلة بسلامة البيئة التي تحيا فيها الساكنة، كأن يتمتع مكان اختيار

* رغم أن المدينة المنورة كانت موجودة ومعمورة قبل هجرة النبي الأكرم (ص) إليها، ولكنها كانت صغيرة ونمت وتطورت بعد هجرته إليها فقط.

. لم يغفل ابن خلدون أيضا أهمية العامل البشري في ذلك، من خلال تأكيده على ضرورة مراعاة تموضع موقع المدن في أماكن تشهد وفرة في تعدادها السكاني الذي يمكن الاستغاثة به وقت الشدائد لنجدتها من هجمات الغزاة عليها، وهو ما يتضح في الفقرة الآتية من مقدمته: " ***ومما يراعى في البلاد الساحلية التي على البحر أن تكون في جبل، وتكون بين أمة من الأمم موفورة العدد تكون صريخا للمدينة متى طرقها طارق من العدو... ومتى كانت القبائل والعصائب مستوطنين بقربها بحيث يبلغهم الصريخ والنفير، وكانت متوعرة المسالك على من يرومها باختطاطها في هضاب الجبال وعلى أسنمتها، كان لها بذلك منعة من العدو ويئسوا من طروقها لما يكابدونه من وعرها وما يتوقعونه من إجابة صريخها*".

المدينة بالهواء الطيب الذي لا يخالطه التلوث لتلافي ما يمكن أن ينجر على ذلك من أمراض، وهو ما يظهر في قوله: " ... ***ومما يراعى في ذلك الحماية من الآفات السماوية طيب الهواء للسلامة من الأمراض، فإن الهواء إذا كان راكدا خبيثا أو مجاورا للحياة الفاسدة... أسرع إليها العفن من مجاورتها... وقد اشتهر بذلك في قطر المغرب بلد قابس***" .

2) **جلب المنافع عند اختيار المكان**: وهو يتعلق هنا بنوع الامتيازات التي يتيحها موقع المدينة بالنسبة لما يحيط به من مساحة، وهنا نجد أن **ابن خلدون** قد راعى بالدرجة الأولى البعد الاقتصادي والذي يعد قوام المدينة وعمادها، والذي يتمثل من ناحية في ما حبها الله بها من خيرات كالماء والزرع... إلخ، وذلك ما يتضح في قوله: "***أما جلب المنافع والمرافق للبلد فيراعى فيه أمور، منها الماء بأن يكون البلد على نهر أو بإزائها عيون عذبة ثرة، فإن وجود الماء قريبا من البلد يسهل على الساكن حاجة الماء وهي ضرورية، فيكون لهم في وجوده مرفقه عظيمة عامة، ومما يراعي من المرافق في المدن طيب المراعي لسائمتهم. إذ صاحب كل قرار لا بد من دواجن الحيوان للنتاج والضرع والركوب، ولا بد من المرعى فإن كان قريبا طيبا كان ذلك أرفق بحالهم، لما يعانون من المشقة في بعده، ومما يراعى أيضا المزارع فإن الزروع هي الأقوات، فإذا كانت مزارع البلد بالقرب منها كان ذلك أسهل في اتخاذه، وأقرب في تحصيله، ومن ذلك الشجر للحطب والبناء، فإن الحطب مما تعم البلوى في اتخاذه لوقود النيران للاصطلاء والطبخ والخشب أيضا ضروري لسقفهم وكثير مما يستعمل فيه الخشب من ضرورياتهم*** ".

كما اهتم أيضا من ناحية أخرى بدور العامل التجاري في الحياة الاقتصادية للمدينة، وذلك من خلال ما أبانه من حرص على الاستفادة مما تزخر به من منافذ بحرية، لإقامة روابط مع الخارج وذلك حتى لا تكون في عزلة عن محيطها، فراعى في ذلك: "***أيضا قربها من البحر لتسهيل الحاجات القاصية من البلاد النائية، إلا أن ذلك ليس بمثابة الأول***" . على أن المراعاة الواجب توفرها من ماء ومرعى وتجارة هي ليست دائما بنفس المستوى من حيث حاجة المدينة إليها، فقد تكون حاجتها للمراعي أشد من حاجتها للقرب من البحر أو العكس، فدرجة توفر الحاجيات كلها متفاوتة بتفاوت الحاجات وما تدعو إليه ضرورة الساكن.

4- أصناف المدن وشروط نموها: يرى **ابن خلدون** أن التجمعات المدينية ليست سواسية بما في ذلك الحجم، وإنما على أنواع وتدرج فمنها الصغيرة وهي أقرب إلى البداوة، ومنها المتوسطة ومنها الكبيرة ومنها كذلك حتى العملاقة التي تجاوزت الحد.

كما تنبه **ابن خلدون** أيضا إلى مجموعة العوامل التي لها علاقة بازدهار المدينة ونموها، فأموال الدولة كثيرا ما تصرف في المدينة من خلال الإنفاق على رجالها وحاشيتها، وهو ما يجعلها أكثر استقطابا، ولذلك يرى أن المناطق العمرانية البعيدة عن مقر الدولة تطغى عليها حالة من التخلف والتردي حتى لو عرفت وفرت في العمران، وذلك لبعدها عن تلك المنفعة وحرمانها من أثرها عليها وهو ما يحول دون تنميتها وازدهار شؤون الحياة فيه، وذلك

ما يتجلى في قوله: " ***ولهذا نجد الأمصار التي في القاصية ولو كانتى موفورة العمران تغلب عليها أحوال البداوة وتبعد عن الحضارة في جميع مذاهبها، بخاف المدن المتوسطة في الأقطار التي هي مركز الدولة ومقرها. وما ذلك إلا لمجاورة السلطان لهم وفيض أمواله فيهم، كالماء يخضر ما قرب منه من الأرض ألى أن ينتهي إلى الجفوف على البعد"***.

سادسا. **نقد أراء وأفكار بن خلدون**: يأخذ الكثير من الدارسين لأراء ابن خلدون بعامة، أن النتائج التي توصل إليها لا تنطبق إلا على المجتمعات التي شاهدها في رحلاته أو عاش بها وأستقر، وذلك ما يتجلى فيما يلي:

1) فقانون العصبية عنده لا يصدق إلا على شعوب العرب والبربر والشعوب التي تشبهها في التكوين والنشأة والظروف. كما أن مسألة روح القبيلة التي يعتبرها الأساس في تكوين النمط البدوي في تفاعلها بمسألة العصبية لا يصدقان دائما على كل المجتمعات. فقد شهد التاريخ قديمه وحديثه بأن هناك دولا كثيرة (صغيرة وكبيرة) قد تكونت وازدهرت دون أن يكون للعصبية أو لروح القبيلة دخل في نشأتها أو بقائها.

2) ولا يمكننا أيضا أن نتجاوز عن أراء ابن خلدون المتطرفة حول إصابة المجتمعات بحالة الهرم، ورغم أن ذلك متسق مع فكرته التطورية للمجتمعات (والتي اتفق معه غيره عليها ممن جاؤوا من بعده وأبرزهم هربرت سبنسر) إلا إن اختبار هذه الفكرة مع واقع الكثير من المجتمعات ينبئ عن خطئها الفادح. ولعل خطأ بن خلدون قد نجم عن ربطه غير المنطقي بين عملية التحضر التي يمر بها المجتمع وحالة الفساد التي يراها، لذلك الأمر الذي ينتهي بها حتما طبقا لرأيه للهرم والاضمحلال والزوال.

المراجع المستخدمة في المحاضرة:

1) عبد الباسط عبد المعطي: **اتجاهات نظرية في علم الاجتماع**، عالم المعرفة، الكويت.

2) سعد الصويان: البداوة والبدائية: إعادة النظر في النموذج الخلدوني، في: **مجلة إضافات**، العدد 05، شتاء 2009.

3) سفيتلانا باتسييفا، **العمران البشري في مقدمة ابن خلدون**، ترجمة: رضوان إبراهيم الدار العربية للكتاب، تونس، 1978.

4) محمد قمانة & رضا رميلي: البعد الايكولوجي للعمران البشري في فكر ابن خلدون، في: **مجلة الواحات للبحوث والدراسات**، العدد 15، جامعة غرداية، 2011.

5) شاكر لعيبي: **الفن والحرف لدى ابن خلدون**، مكتبة مدبولي، الطبعة 01، القاهرة، 2010.

6) محمد الرحموني: في العلاقة بين مفهوم الجاهلية القرآني ومفهوم البداوة الخلدوني، في: **مجلة إضافات**، العدد 03-04، صيف وخريف 2008.

7) حسن الخياط: العطاء الجغرافي في مقدمة ابن خلدون، في: **مجلة مركز الوثائق والدراسات الإنسانية**، العدد 08، جامعة قطر، 1996.

8) عبد الحميد بوقصاص: **النماذج الريفية– الحضرية لمجتمعات العالم الثالث في ضوء المتصل الريفي الحضري**، ديوان المطبوعات الجامعية، قسنطينة.

9) محمد، يسار عابدين & عماد، المصري: الفكر التنموي في مقدمة ابن خلدون: دراسة تحليلية مقارنة للاتجاهات النظرية المفسرة لعملية التنمية الحضرية ولدراسة مؤشر تطور التنمية مع الزمن، في: **مجلة جامعة دمشق للعلوم الهندسية**، المجلد الخامس والعشرون (25) العدد الأول (01)، سوريا، 2009.

10) عبد الباقي عبد الجبار الحيدري: نظرة ابن خلدون لظاهرة النمو الحضري، في: **الحوار المتمدن**، العدد 3575، 2011/12/13.

11) نادية صباح محمود الكبابجي: علم الاجتماع الحضري عند ابن خلدون، في: **آداب الرافدين**، العدد 51، العراق، 2008.